التقليد الصوفي في القصيدة الشعبية المعاصرة :
"منطقة البيض أنموذجا"

د. عبد القادر طالبي

قسم العلوم الإنسانية

المركز الجامعي نور البشير - البيض

ملخص

يهدف هذا البحث إلى :إعطاء القارئ صورة عن الشعر الشعبي في منطقة البيض خاصة المعاصر منه،والتركيز على موضوع التصوف في النص الشعري الشعبي وتضمين وأشكال التقليد الصوفي فيها من خلال نماذج لقصائد شعبية غير مطبوعة تم توثيقها أو تسجيلها بطريقة الشخصية

Résumé

L'objectif de cette recherche est de proposer au lecteur une idée sur le poème populaire contemporain dans la région d'El-Bayadh, en mettant l'accent sur la présence du soufisme dans les textes poétiques populaires, en particulier dans les poèmes qui n'ont pas été publiés mais seulement recensés ou enregistrés de façon individuelle.

1- منطقة البيض

أ/الموقع الجغرافي:

تقع منطقة البيض في الهضاب العليا الغربية الجزائرية،تتميز بمناخ قاري وبساط نباتي سهبي،تمارس الغالبية من سكانها نشاط الفلاحة والرعي والتجارة.يعتبر المجتمع البيضي من المجتمعات المحافظة في الجزائر يحرص أفراده على التعليم والثقافة دون التخلي على التراث الشعبي المحلي .

ب /التسمية:

هناك عدة روايات متداولة في المنطقة حول أصل تسمية المنطقة ب"البيّض":

- البيّض من صفة بياض تربة المكان الذي بنيت عليه المنازل الأولى لسكان المنطقة.

- البيّض من صفة بياض الثلج الكثيف الذي يغطي جبال المنطقة في فصل الشتاء. [1]

- في عهد الاحتلال الفرنسي عرفت المنطقة أولا باسم : ليني فيل Ligny ville ثم باسم جيري فيل Géry ville نسبة إلى الكولونيل جيري الذي أسس بالمنطقة مركزا عسكريا سنة 1852 [2]

2- نبذة من تاريخ الشعر الشعبي في منطقة البيض

يعتبر البحث في جذور الشّعر الشّعبي في منطقة البيّض أمرا صعبا،ومعرفة بداية ظهوره أمر يكاد يستحيل بسبب عدم وجود أدلة مادية تؤرخ لبداياته الأولى،وهذه القضية معروفة لدى الباحثين في الدراسات الشّعبية في الجزائر فتحديد بداية ظهور الشّعر الشّعبي في الجزائر عامة أمر تعددت الآراء فيه وتباينت ولم يستطع أي باحث إقناع غيره بما ذهب إليه [3].أمام هذا الوضع فضلنا تقسيم تاريخ الشّعر الشّعبي في منطقة البيّض إلى فترتين:

1/ما قبل القرن التاسع عشر.

2/من القرن التاسع عشر إلى عصرنا هذا.

وقد لجأنا إلى هذا التقسيم للأسباب التالية:

1_عدم وجود قصائد شعرية مكتوبة أو محفوظة تعود إلى الفترة الزمنية الممتدة من استقرار أول إنسان بمنطقة البيّض إلى بداية القرن التاسع عشر.

2_يعتبر القرن التاسع عشر الفترة الزمنية و المرحلة التاريخية المهمة في تاريخ الشّعر الشّعبي في منطقة البيّض؛لوصول بعض القصائد الشّعرية متوارثة إلينا عبر

الرواية الشفوية عاصر بعض الرواة أصحابها أو سمعوا على من عاصروهم.ونشير هنا أن الفترة الأولى من تاريخ الشّعر الشّعبي لمنطقة البيّض مرحلة مهمة بالنسبة إلينا،لما نعتقده من وجود لإنتاج شعري فيها،من منطلق إيماننا بعدم خلو أي مرحلة في التاريخ الإنساني من إبداع أدبي يعبر به الفرد عن حياته واهتماماته،وعدم وصول هذا الإنتاج لا يلغي وجوده أوينفيه جملة وتفصيلا.

الفترة الأولى:

هذه الفترة التي لم يصلنا منها شيء يذكر عن الشّعر الشّعبي في منطقة البيّض –كما سبق ذكره – رغم ذلك لا يمكن إلغاؤها أو حذفها من تاريخ الشّعر الشّعبي في المنطقة،فالشّعر الشّعبي للقبائل الهلالية المنظوم باللهجات العربية التي سادت في فترة من تاريخ المنطقة،لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكار وجوده أو الاعتراض على سيادته لفترة زمنية معينة،لاعتبارات اجتماعية وثقافية خاصة، أملتها ظروف الحياة اليومية للأوساط الشّعبية متعلقة بالجانب الاقتصادي،الذي نقصد به هنا النشاط الغالب على سكان المنطقة منذ زمن طويل ألا وهوالرعي وتربية المواشي وتجارتها،فأهل المنطقة توارثوا حياة البداوة والسعي في كسب المراعي ومنابع المياه حفاظا على قطعانهم من الهلاك وضمانا لمصدر رزقهم.

الفترة الثانية :

تعتبرهذه الفترة التي جعلنا بدايتها من القرن التاسع عشر فترة مهمة في تاريخ المنطقة،ومرحلة هامة من مراحل التطور الثقافي في مجتمع منطقة البيّض تعكسه النصوص الشّعرية التي رسختها الرواية الشفوية والتوارث في الذاكرة الشّعبية لأهل المنطقة ولم يسجل منها إلاعددقليل جدا في مؤلفات بعض المستشرقين مثل: "سونك"في كتابه "الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقيا والمغرب" أين نجده يذكر بعض الأشعار التي تتصلبمنطقة البيّض متمثلة في القصائد التالية:

القصيدة الأولى :

قصيدة مدح عنوانها "يا السايل لا تلغالي "مطلعها :

خبرني على عرب عيشه يا الزاوي ياالسايل لا تلغالي بوالي تمسي ماوي
خبرني يا الزاوي على عرب صفة المفتول
من أهلك سوال خاطري متحير مشغول
ونسبها سونك إلى محمد بلخير وعنونها في فهرس الكتاب [4] بعنوان:
"يا السايل لا تلغالي ".

القصيدة الثانية :

قصيدة للشاعر أحمد الأخضرعنوانها في الفهرس وين نجوع السماحات مطلعها :
بالبكاء عيني عليهم دايم يدفقوا [5] واين نجوع السماحات الي عليهم انسال

القصيدة الثالثة:

قصيدة لم يذكر صاحبها وأكتفى بذكر نسبته إلى عرش أغوط كسال وهو أحد عروش منطقة البيّض و القصيدة بعنوان "بالحاضر عود الأخبار" ومطلعها :
علو نهار الشلاله في الزمان معدود يا الحاضرعود الأخبار واشتا صار [6]

يظهر من كتاب "سونك "أن القصائد المذكورة دونت عبرالرواية الشفوية الشّعبية دون دليل على وجود أثر مادي مكتوب،والمعلوم أن الرواية تشكل الوسائل الأساسية لتداول القصائد بين الأوساط الشّعبية،ولعلها الوسيلة الوحيدة التي يرتكز عليها كل باحث عن الشّعر الشّعبي في منطقة البيّض؛فالشّعر في صدور الرواة مصون تغلفه طبقات الاعتزاز والفخرو يجدد وجوده الإعجاب والتذوق.

3- أعلام الشّعر الشّعبي في منطقة البيّض

يحتم الحديث عن أعلام الشّعر الشّعبي في منطقة البيّض على صاحبه الوقوف بداية بالشاعر"محمد بلخير"شاعر ارتبط اسمه وشعره بالثورة الشّعبية للشيخ بوعمامة،فكان بحق الأكثر شعبية دون غيره من الشّعراء،واسمه على لسان كل منعاصروه وذريتهم إلى يومنا هذا،الشاعر الرزيقي الأصل وابن منطقة بوعلام [7] محمد بلخير المجاهد الذي رافق الشيخ بوعمامة في ثورته ولم يتخل عنه حتى قبض عليه ونفي إلى جزيرة كالفي.

جاهد محمد بلخير بسلاحه ولسانه،فكانت أشعاره الحماسية أشد وطأة على المستعمر من طلقات الرصاص؛كيف لا وهو الخافق بروح البطولة والوطنية "فالذين يريدون تخيل شخص شاعرنا يمكنهم عبر مقارنة بسيطة للوحة فارس كما صورها الأدب القديم لمناطق الاوكسيتان وهو أدبتأثر بقوة الشّعر العربي في الأندلس. [8]

ترك محمد بلخير أشعارا كثيرة وقصائد متعددة احتوتها الذاكرة الشّعبيةحافظت عليها،ولكن لم يكتب لها الجميع و التدوين الا بعد عشرات السنوات من وفاته حيث جمع الدكتور بوعلام بسايح أشعاره 9،كما تركأيضا أشعارا في الفخر والحماسة والحب وغيرها من الأغراض التقليدية المعروفة في الشّعر العربي التيسنقف عليها في ثنايا هذا البحث في مقام آخر.

ما عدا محمد بلخير لم يحظ أعلام شعراء منطقة البيّض بالاهتمام والعناية بإبداعهم الشّعري الذي ضاع جزء كبير منه بفعلالنسيان وموت الرواة والحفظة،فلم يحظ شعر الحاج قروج بالعناية رغم شهرة الشاعر التي تخطت حدود الرقعة الجغرافية لمنطقة البيّض وشاع شعره بين سكان الهضاب،خاصة بعدما غنى له الفنان خليفي أحمد رائعة "بنت الجار" التي أعجب بها الفنان وراسل الشاعر في طلب المزيد من القصائد الشّعرية .

يوجدشعراء كثيرون أعلاملم يكتب لشعرهم الجمع والاهتمام وبقيت أشعارهم تحتفظ الذاكرة الشّعبية بشعرهم أو يتناقل بعضهم في أوراق منسوخة،بقصائد دون عليها بعض المعجبين ما سمعه عنهم،ولم نعثر فيما وقع بين أيدينا من أوراق وكتب عن مجموعة شعرية مطبوعة لشاعر من شعراء البيّض المعاصرين [10].

4- الشاعرالشعبي والتجربة الروحية

يكون للشاعرأحوال نفسية تتغير معها انفعالاته مع أهوال التجربة الشعرية،لتولد قصيدة مسكونة بروح التجربة الإنسانية،قد تعبرعنها الأبيات مجتمعة معا وقد يعبرعنها البيت منها منفردا،ولكنها في كل الأحوال صوت الشاعر وموقفه من الحياة والوجود،صوت القيّم الروحية التي تبحث عن هوية الروح؛فالشاعر إنسان

يعيش على وتر أحاسيسه ونظرته للحياة والوجود المتولدة عن فطرة الإنسان في الوصول إلى أجوبة شافية لأسئلة أزلية تراوده عن معنى الذات والإله وسر الكون.

تربط الشاعر العربي- كغيره من الشعراء- منذ القديم علاقة وثيقة بالقيم الروحية لأن الشاعرالعربي الأصيل كائن تشع من قصائدهأنوار الإنسانية المؤمنة رغم اختلاط بعضها بشرك لايتعدى إلى نكران وجود اللّه "والشعر الحقيقي عند العرب،هوالنظرة الثاقبة إلى ما وراء الدنيا حيث عالم المبادئ السامية والناظمات الروحية للإنسان،وبذلك يكون الشعر رسولا للقيم الروحية وباحثا عن اللّه تعالى ليرقي إليه ويقود البشرية إلى الأخلاق السامية والمبادئ القويمة" [11].

إنها المهمة العظيمة للشاعر في الحياة و"إن أعظم شاعر في عصر من العصور هو الشاعر الذي يقبل أكبر جزء من الحياة في عصره،ويتساءل على نحو أعمق من غيره ما معنى هذه الحياة" [12] معنى يتجلى له في ثنائيات (الحضور،الغياب)،(القوة ،الضعف)تتكشف له حقيقة ثابتة أنه ماض في رحلة البداية والنهاية"والراحل في الحياة يطمئن نفسه ببعض الشيء إلى أنه سبقه راحلون آخرون،راحلون ذهبوا إلى حيث هو ذاهب الآن،فكل شيء يفعله أطلق عليه السابقون من قبل أسماء وكل طريق يطرقه طرقه كثير من قبل" [13].

يعزز هذا الطرح دور جانب الوعي الديني في فهم الحياة الإنسانية،التي تمثل الحياة الشعبية قسما كبيرا ومهما منها،حيث يلعب فيها الفنان الشعبي كمفكر يتأمل ذاته ووجوده العاكس لطبيعة التفكير الشعبي،الذي يرى بعينه الأسطورية الوجود والحياة في أشكال من الخيالات الزائفة،والمعتقدات الخاطئة التي تدل على أن في الإنسان الشعبي قابلية لاستقبال الموروثات الأسطورية"وفي الجماعات نزعات تتيح الأوهام والخرافات أن تذيع،وذلك لأن الجماعة سريعة لتصديق والاعتقادلاسيما إذا كانت تغلب فطرتها على ثقافتها فتذهب في تفكيرها وتعليلها وقياسها مذاهب غيبية..." [14]

5- الشاعر المداح في الثقافية الشعبية الجزائرية

يمثل الشاعر الشعبي في المجتمع الجزائري رمزا من رموزحملة الفنون الشعبية،ويرسم بفنه صورة المجتمع الشعبي وثقافته الشعبية بكل ما يحمله تفكيره الثقافي والديني.ومنه يمكن للدارس مثلا أن يحدد ملامح الجانب الاعتقاد في المجتمع الجزائري الشعبي من خلال القصائد الشعبية التي يبدعها الشعراء ويرويها المداحون في الأسواق الشعبية والمناسبات و"من المعروف أن ثنائية (الطالب/المداح)هي التي تقف في النهاية من وراء ظهور ما يعرف اليوم بالفن الشعبي أوالغناء الشعبي الجزائري حيث أن مدرسة الشعبي ماهي إلا امتداد لظاهرة المداح المنطلقةأساسا من الفضاءات الصوفية المتمثلة في الزوايا" [15]

علاقة الشاعر المداح أو الصوفي في هذا المقام بالزاوية وشيوخها وطيدة الصلة،ولا يعني هذا أن الشاعر في كل الأحوال صوفي بالمعنى الديني أو مريد للطريقة الصوفية؛بل يمكن اعتباره كداعية يمارس إمامته الفنية وفق أسلوبه الخاص، فنجد"أن الشاعر الشعبي يمتص جانبا من التصوف،ثم يعيد نسجه وفق ما تزوده به من علوم ومعارف دينية،وهنا نلاحظ أن الشاعر الشعبي لا يجهل الأبعاد الحضارية لخطابه،فهو يستفيد مما تعطيه الجماعة الشعبية كما يستفيد من مؤهلاته الاجتماعية والثقافية" [16]

لقد أدرك الشاعر الشعبي أن اللمسة الصوفية(الظاهرةأوالخفية) في القصيدة الشعبية تحقق غاية نبيلة في مجتمعه الشعبي،اقتضتها وظيفته الدينية الأخلاقية التي يجسدها في شخص المداح،وهي في منظورالمجتمع الشعبي مقدسة وراقية"فالمداح كان يمدح عن الله وعلاقة الإنسان به من حيث الطاعة والمعصية والاستغفار،بما يشمل جميع الانشغالات الصوفية ويمدح أيضا عن الرسول عليه الصلاة والسلام،والصحابة رضي الله عنهم والأولياء الصالحين إضافة إلى أيام وغزوات العرب " [17]

هذه الوظيفة(الشاعر/المداح) [18]تتطلب من الشاعرآلية تواصل لغوي خاصة، تحقق في آن واحد الوعاء الثقافي والتنبيه الدلالي لحقل المعاني المألوف لدى

المتلقي الشعبي،الذي أصبح يرى أن "الشعر الذي لا يحقق هذه الغاية الحيوية لا يمكن أن يسمى شعرا راقيا،وفي هذا المجال بالذات صار الشعراء المتصوفون على وعي كاف بتلك الوظيفة المنوطة بهم حيث أدركوا أن الكشف عن لغة جديدة،ليس من المعقول في شيء بل ربما كان من غير المنطقي أن تعبر اللغة القديمة عن التجربة الصوفية الجديدة" [19]

6- اللمسة الصوفية في القصيدة الشعبية المعاصرة في منطقة البيض

بمرورالزمن أصبحت اللمسة الصوفية في القصيدة الشعبية لازمة لامناص للشاعرعنها؛لأن لاوعي المتلقي الشعبي برمج على سياق سماع شعري شعبي خاص،يؤسس لرؤية نقدية تعتبرغيابها عيبا يحط من جمالية قصيدة الشاعر.أوجد هذا الوضع تقليدا جديدا في القصيدة الشعبية توارثته أجيال الشعراء الشعبيين،وأصبح خاصية فنية في القصيدة الشعبية الجزائرية حافظ بعض الشعراء عليها بإحكام وفارقها بعضهم بالمعروف .

ما يمكن ملاحظته بشكل عام بخصوص التصوف في الشعر الشعبي المعاصر في منطقة البيض أن القصيدة الصوفية الخالصة قليلة بين أشعار شعراء المنطقة ويرجع إلى قلة اهتمامهم به و يفضلون عنها التقليد الصوفي أو تطعيم النص بعبارات صوفية لتجاوب المتلقي الشعبي المعاصر مع هذا الأسلوب واستحسانه له.

7- أشكال التقليد الصوفي في القصيدة الشعبية المعاصرة

قلة القصائد الشعبية المعاصرة التي تعالج قضايا التصوف في منطقة البيض جعلنا نتتبع ما ورد في المدونة الشعرية الشعبية اشكال التقليد الصوفي الذي يبقى العلاقة بين القصيدة التصوف في أشعار الشاعر الشعبي،أي أن الشاعر يحافظ بمظهر عام لشكل القصيدة يمنها صبغة صوفية تشابه فيها بعض ملامح القصيدة الصوفية الخالصة.

وبالعودة إلى المدونة المتوفرة لدينا [20] من قصائد الشعراء الشعبيين المعاصرين في منطقة البيض نجد أن تعاملهم مع التقليد الصوفي تجلى في ثلاثة أشكال:

الشكل الأول :قصيدة صوفية صرفة :

هذا النوع من القصائد هو شكل من أشكال التعامل مع التقليد الصوفي الذي أسس له في الشعر الشعبي الجزائري الشاعر لخضر بن خلوف المعروف ب"مداح النبي "والذي عرف عنه استقلال القصيدة بالمديح النبوي وقضايا الزهد والتصوف، تقليد توارثه الشعراء من بعده وعارضوه.هذا النوع من القصائد قليل الحضور في الشعر الشعبي المعاصر بمنطقة البيض،فلم نعثر فيما نحوز من قصائد شعرية إلا على نماذج قليلة لقصائد في الزهد كقصيدة "حنّ عليّا خالقي" للشاعرة جودي ذهيبة (بنت الواحة):

حن عليا خالقي بالفـايده وجاد عليا بالرخا فالضـيق
عشت سنين في مقامو عابده البال مهني راقـده وانفيـق
ما نتخلخل في حبالو شـاده ما نتعدا ما نـقول انطيـق
ما نرضى بالي قبالي واجده او مانـزهى للايحه ببريـق

هذه القصيدة التي يعوزهاالنفس الشعري لقلة عدد أبياتها ،احتوت على مزيج من الزهد والتصوف،لكنه خالي من روح التجربة العرفانية بمفهومها الصوفي الفلسفي،ففكرة الشاعرة عن الزهد والتصوف رغم ما يبدو للقارئ من عمق في بعض أفكارها لا تعدو أن تكون إشارات سطحية ترفلها ببعض الرموز الصوفية ،خالية من الحس الصوفي الذي يتغلغل في عوالم الحضوروالغياب لذات العابد المتجردة من شوائب النفس المتراكمة فيها عندما تتدنس بزبد الدنيا.أي أن الشاعرة اعتمدت على"اصطناع الأسلوب الصوفي دون تجربته الغيبية اللاهوتية الحميمة ..." [21]

نموذج أخر لقصيدة صوفية عنونها الشاعر محمد باجي"سلم للصلاح" تبين الرؤية الشعبية لمقامات الأولياء وكراماتهم،وكماهومعلوم"تتوزع أخبارأهل اللّه ومناقبهم وتسري دوما في المخيلةالجماعية كراماتهم،وترصد معالم سلطانهم في

الطقوسات السنوية والموسمية مبلورة مدونة متنوعة متعددة الروافد متفاوة التاثير... [22].جاء في قصيدة الشاعر :

أنا عندي شيخ واسمه الناصر من قديم الزمان شايع بوحركات
اذا حام يصير الطير الكاسر فرفر بجنحين قاوي فالضربات
ساعة ما يضيق قلبي والخاطر درته عني وكيل كذا من مرات
سيدي بوحركات برهانه باهر اتشاف بالعيان ياسر من مرات

في هذه الأبيات التي يتضرع فيها الشاعر لشيخه مظهرا الطاعة العمياء والإيمان المطلق بكراماته هوما يظهر الفهم الخاطئ لمعنى الولي والكرامة،من خلال هذه الصورة الأسطورية التي تحدد ملامح العلاقة بين المريد والشيخ في الثقافة الشعبية الجزائرية التي خرج فيها الفهم الصحيح لمعنى التصوف عن دائرة أصحابه العارفين به،الذين بذلوا جهدهم في تصحيح معنى التصوف،"ولكن الفلسفة الصوفيةاستهوت الكثيرين من الأوساط الشعبية المولعة بكل غريب،وبكل رطانة تخفي وراءها الأسرار كما يزعمون ..." [23] .

الشاعر محمد باجي ليس بدعا في شعراء المنطقة في أشعاره هذه؛بل هو امتداد لما ورثه شعراء المنطقة عن الشاعر محمد بلخير الذي سبق باجي في تصويرعلاقته بشيخه محمد بن عبد القادر المعروف ب"سيد الشيخ"في أشعاره أكثر من مرة في أشعاره التوسلية [24]،ونشير هنا أن التوسل بالأولياء الصالحين في الشعر الشعبي الجزائر حاضر في قصائد مشاهيره [25]،يميزه قلق الشاعر وشعوره بالضعف،ممايستدعي التوسل بالولي لتوسط في كشف الغمة،وتفريج الكرب،ثقة في صلاحه وقربه من ربه.

الشكل الثاني :مطلع القصيدة وختمها بلمسة صوفية:

هذا الشكل من تقليد الصوفي في الشعر الشعبي في منطقة البيض،يقوم على استفتاح الشاعر لقصيدته بمطلع صوفي يمثل فاتحة خطاب ديني وخاتمة تحتوي على الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام وكأن الشاعريحرز قصيدته بذكرالله وبركة الصلاة على نبيه،فيستشعر حضور الهالة الروحية في حالات

الإلهام الشعري،الذي يجعل المتلقي أيضا في حالة اتصال وثيق مع النص الشعري؛لأنه محفوف بذكر الله والصلاة على النبي،حالة تجعل منهما حاضرين في حضرة الإبداع الشعري المشرفة بذكرلله ،وذاك مقام روحي عظيم لهما .

بالعودة إلى المدونة الشعرية نجد هذا الشكل يأتي في صور مختلفة منها مثلا:

أ/ الصورة الأولى:

مطلع :(البسملة +الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام).

ختم : الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام .

ونجده في قصيدة"غزة وطن العزة "للشاعر بن حاحا [26]:

مطلع : نبدا بسم الله قولي نتكلم والصلاة عليك محمد طه

ختم: والصلاة على النبي بيها نختم وعلى القدس الي دنيا تهواها

ب/ الصورة الثانية:

مطلع:دعاء بأسماء الله الحسنى والتضرع إليه بإظهار الذلة والضعف.

ختم:الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام.

و نمثل له بقصيدة "مهرجان الخيّان"للشاعر فشفوش الناصر:

مطلع: طلبتك يا معين كل الطلابه يا من لبدا خزاينه قي محلولين

يا سميع لمشي نمله فالقابه وعالم لاسرار فالدنيا والدين

الختم: والصلاة على النبي مولى طيبه والسلام عليه مادمنا حيين

الملاحظ أن مطلع القصيدة دعاء في شكل استغاثة،يقر فيه الشاعر بضعفه وقلة حيلته،"وهذا الشكل من مطالع القصائد،عده البعض من أرقى الأشعار في أدب الصوفية الرفيع" [27].

ج/ الصورة الثالثة:

مطلع:دخول مباشر إلى موضوع القصيدة.

الختم :الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام.

وجدناعند كثير من الشعراء استغناء عن مطلع القصيدة الصوفي الذي ذكرناه في الصورتين السابقتين مع المحافظة على ختمها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم طلبا لبركة حضوره فيها،وتنزها عن نقدها من المتلقي الشعبي الذي يستحضر قصة الشاعر محمد بلخير مع شعراء مازونة التي يذكرها كل المهتمين بالشعر الشعبي في هذه المنطقة [28].

يمكن التمثيل لهذه الصورة بقصيدة "سربي لي كاس" للشاعر جلول جلجلي :

المطلع:سربي لي كاس بالنعناع بنين زيد اعطيني قارو نتونس بيه

الختم:والصلاة مع السلام على الأمين سيد المرسلين صحبه وآله

وقصيدة "تتبدل الاحوال"للشاعر مقدم نور الدين:

المطلع :الامتحان يكون فالدنيا والدين سنة مولانا اتصنف وترتب

الختم:والصلاة على النبي جد الحسين مول الرساله الي ذكرو يعجب

من خلال هذين المثالين السابقين يتبين للقارئ كيف أن الشاعر ختم قصيدته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ذاكرا إياه بأحد ألقابه(الأمين- جد الحسين) حفاظا على عروض القصيدة وقافيتها من جهة،وتحقيقا للتقليد الصوفي الذي يعيره المتلقي اهتمامه ويركز عليه في نقده للقصيدة .

ما يستخلص في ختام هذا الحديث عن التقليد الصوفي في القصيدة الشعبية بمنطقة البيض،أن كثيرا من الشعراء تخلوا عن تقليد الاستفتاح بالمطلع الصوفي الديني وحتى ختمها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم،وذلك في اعتقادنا ليس تمردا منهم على عمود القصيدة الشعبية،أوانسلاخا عن قيمهم الاجتماعية والدينية والثقافية،لكن طبيعةالمتلقي الشعبي للقصيدةالمعاصرة وتغير المعطيات الثقافية والاجتماعية للمنطقة،قلل من وطأة التشدد في تتبع حضورها وإسقاطها من عيوب القصيدة،بحيث صارالتركيزعلى القصيدة ككل متكامل وعلى جمالية البناء الفني أولوية الشاعر والمتلقي معا .

هوامش البحث

[1]- نرجح هذا الرأي لأنه يتوافق مع سمات المنطقة المناخية المعروفة بالبرودة وكثرة تساقط الثلوج

[2] --D'Alger à Tamanrasset :ROGER DUVOLLET édition paris PARIS1983tome 3 p 62

[3]- ينظر عرض هذه الآراء ونقدها في كتاب :دراسات في الشّعر الملحون الجزائري - عبد الحق زريوح- دار الغرب الجزائري–الجزائر 2008 ص(9- 27)

[4]- الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقيا والمغرب –سونك- سلسلة الأنيس- م.و.ن.م للنشر –الجزائر 1992ص 167

في رواية أبيات هذه القصيدة تضارب كبير عند بعض الباحثين الذين جمعوا شعر محمد بلخير فالأستاذ العربي بن عاشور في كتابه"أشعار محمد بلخير شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة "يذكر في هامش الصفحة 288 من كتابه أن هذه القصيدة مذكورة أيضا عند بوبكر بن حمزة ورجح الرواية الأخيرة وأصبح عنوان القصيدة خبرني على عرب خيرة وين نزول ومطلعها

يا السايل لاتلغى علي بسوال خاويراني لاهي لسوال خاطري مشطن مشغول

القصيدة نفسها نجدها في كتاب أشعار" الهوى والوغى "الذي جمع فيه بوعلام بسايح أشعار محمد بالخير في الصفحة 80 تحت عنوان "خيرة"في متن يختلف في كثير من الأبيات عن المذكورة عند سونك و الأستاذ العربي بن عاشور.

[5]- المرجع نفسه ص 245.

لم نعثر على رواية أخرى لهذه القصيدة كما لم نتمكن من التأكد من نسبتها إلى الشاعر المذكور.

[6]- المرجع السابق ص 269.

لم نستطع العثور على رواية أخرى لهذه القصيدة أو التعرف على صاحبها الحقيقي من خلال الذاكرة الشّعبية للمنطقة.

[7]- رزيقي نسبة الى عائلة الرزيقات المعروفة في منطقة البيّض.

- جاء في كتاب الأستاذ العربي بن عاشور "محمد بالخير "صفحة 08 مايلي :"كان مسقط رأسه منطقة تاعست بالواد المالح دائرة بوعلام التي تبعد عن الولاية ب70 كلم بين وهران وتموشنت"في هذه الفقرة خلط والتباس في المعلومات والصحيح أن الشاعر ولد في

منطقة الوديان التابعة الى دائرة بوعلام التي تبعد عن مقر ولاية البيّض ب70 كلم وتقع تاريخيا في الإقليم الجغرافي لعرش لغواط كسال الممتد من الأغواط إلى البيّض. أما بخصوص تاريخ ميلاده فقد تضاربت الآراء فيه بين سنة 1822- 1826- 1835.

[8]- أشعار الهوى و الوغى لمحمد بلخير –بوعلام بسايح –ترجمة: نور الدين خندودي – المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار- الجزائر 2007 ص16

[9]- تناول بوعلام بسايح شعر محمد بلخير في :

- الراية الممنوعة :أشعار الحرب والحب لمحمد بلخير

كما قام بعض الأساتذة بدراسات حول شعره كالدراسة التي قام بها الأستاذ العربي بن عاشور في كتابه: أشعار محمد بلخير: شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة

والأستاذ ناصر صبار : محمد بلخير شاعر الحكمة والحرب .

فضلا عن هذه الأعمال يوجد أعمال أخرى غير مطبوعة اهتمت بشعر محمد بلخير جمعا وتحقيقا كتلك التي قامت بها الأستاذة خديجة رحماني بمكتب التراث الثقافي لولاية البيّض

[10]- تحاول جمعية بيت القصيد المهتمة بالشّعر الشّعبي في منطقة البيّض جمع ما استطاعت من الأشعار القديمة في المنطقة لكن الإمكانات المحدودة تحول دون نشر هذه الأعمال.

11- القيم الروحية في الشعر العربي –ثريا عبد الفتاح ملحس- دار الكتاب اللبناني – بيروت لبنان- دت ص 42

12- الحياة والشاعر–ستيفن سبيندر- ترجمة:سهير القلماوي- مصطفى بدوي- دط- مكتبة الانجلو المصرية- مصر- دت:ص71

13- المرجع نفسه :ص101

[14]- المعتقدات الشعبية في الموروث الشعري العربي القديم - ط1- عبد الرزاق خليفة محمود- دار الينابيع - دمشق سوريا 2009ص5

[15]- التصوف في الأدب الشعبي الجزائري –منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي – الجزائر دت ص37

[16]- المرجع نفسه: ص41- 40

[17]- المرجع السابق ص:38- 37

[18]- من المعروف لدى دارسي تاريخ الشعر الشعبي في الجزائر أن الشاعر لخضر بن خلوف هو أول من لقب بمداح النبي لماعرف عنه من كثرة مديحه للنبي صلى الله عليه وسلم في شعره.

[19]- الشعر الصوفي الشعبي (البنية والرؤيا)- قايد سليمان مراد- مجلة الأثر –جامعة قاصدي مرباح - ورقلة –الجزائر عدد :6 ماي 2007 ص 142

20- بحوزة الباحث مدونة شعرية خاصة بشعراء منطقة البيض قام بجمعها من مصادر متعددة (تسجيلات صوتية ، مخطوطات قصائد ،روايات شفوية)

21- أساليب الشعرية المعاصرة –صلاح فضل- دط- دار قباء- مصر دت ص277

[22]- أعمال الملتقى الوطني الأول حول أمجاد الصوفية –(مديرية الثقافة لولاية عين تموشنت)- ط1- دار الكتاب العربي –الجزائر 2010 ص18

[23]- طبقات الصوفية :محمد بن الحسن السلمي- تحقيق:مصطفى عبد القارد عطا - ط2- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان 2003 ص8

[24]- ينظر على سبيل المثال:

- قصيدة: سيد الشيخ اذا لقيت عليك ارواح:أشعار محمد بلخير:العربي بن عاشور ص241

- قصيدة:سيدي كون امعايا :أشعار الهوى والوغى لمحمد بلخير:بوعلام بالسايح ص119

[25]- أورد الدكتور التلي بن الشيخ في كتابه دراسات في الأدب الشعبي أبيات شعرية للشاعر الشيخ بن يوسف يتوسل فيها بالولي عبد القادر الجيلاني(ينظر:دراسات في الأدب الشعبي – التلي بن الشيخ- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر 201- 200)

[26]- مجلة فصول ثقافية –دار الثقافة محمد بلخير- البيض –الجزائر عدد :3 نوفمبر 2009 ص19

[27]- ينظر:الأدب في التراث الصوفي –عبد المنعم خفاجي –مكتبة غريب –مصر ص179

[28]- تتوارث الأوساط الشعبية في منطقة البيض قصة شعبية عن الشاعر محمد بلخير لم نستطع التحقق من مصادر روايتها - تحكي تفاصيلها عن ذهاب الشاعر إلى منطقة مازونة لإلقاء بعض إشعاره لكنه انتقد حينها من طرف كبار الشعراء الحضور بأن شعره "ينقصه الملح" رغم براعة الشاعر وروعة أشعاره؛لسبب وحيد أنه لم يرد فيه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم .